﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 6 - 8]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الرَّبْطُ بَينَ مَشْهَدِ البَ، ثِ ومَناطِ المُحاسَبَة

بعدَ أن صوَّرَتِ الآياتُ السابقةُ انقلابَ نِظامِ الكونِ في ذلكَ اليوم المُهيبِ، حينَ تَتشقَّقُ السَّماءُ، وتَتَساقَطُ الكواكبُ، وتتفجَّرُ البِحارُ، وتُبعثَرُ القبورُ: جاءَ الخطابُ الإلَهيُّ؛ ليَلتفِتَ إلى الإنسانِ التِفاتَةَ المُرَبّي للمُقصِّر، فيقولُ له مُعاتِبًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾؟ وهذا الانتقالُ مِنَ الوصفِ الكَونيِّ العامِّ إلى الخِطابِ النَّفسيِّ الخاصِّ، هو بحَدِّ ذاتِهِ إنذارٌ بليغٌ؛ إذْ يُشيرُ إلى أنَّ الإنسانَ ليسَ بمَنْأًى عن هذا الانقلابِ العظيمِ، بل هو في صَميمِ الحدَثِ، وعليهِ يقعُ الحِسابُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَرَّكَ﴾: (غرر) أصْلٌ يَدُلّ على الخِداعِ والتَّزيينِ الباطلِ الذي يوقِعُ في الغَفْلَةِ والاغترارِ، ومنه قولُهم: (غَرَّهُ الشَّيءُ)، أي: خدَعَهُ، وأطمعَهُ بما لا حقيقةَ له، و(الغرورُ) ما يُظهِرُ خلافَ واقعِه، كأنْ يُزيِّنَ لِلمَرءِ الباطِلُ، فيَظنَّهُ خيرًا، أو يُؤمِّنَ العِقابُ، فيُهمِلَ الحساب، ويُقال (أغَرُّ مِن ظَبْيِ مُقمِر)؛ لأنَّهُ يَخْرُجُ في اللَّيْلَةِ المُقْمِرَةِ يَرَى أنَّهُ النَّهارُ، فتَأْكُلُهُ السِّباعُ[1]. وقَدْ جاءَ الفِعْلُ هُنا ﴿غَرَّكَ﴾ على وجْهِ اللَّوْمِ والتَّوْبيخِ والتَّبْكيتِ لِلعَبْدِ الَّذي يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ، ولا يَخافُهُ[2]، لا على وجهِ الاستفهامِ الحقيقيّ، فالمعنى: (أيُّ شيءٍ أغراكَ حتى ر: كَنتَ إلى الأمنِ، وغَفَلتَ عنِ الحسابِ، وأمِنْتَ من لقاءِ ربِّكَ الكريمِ؟.

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غرر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (غرر).

2) ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: (سوي) أصْلٌ يَدُلُّ على الاعتدالِ والتَّقويمِ والتَّسويةِ بين الأجزاءِ على نحوٍ مستقيم[1]؛ يُقالُ: (سوّى الشَّيءَ)، أي: جعلَه متناسقًا متناسبًا معتدلًا بلا خللٍ ولا فُجاءةٍ[2]، و(سوّى البناءَ)، أي: أحكمَ تركيبَه، فجعلَه مُتَّسِقَ الشَّكْلِ مُتَوازِنَ الأركانِ، و(سوّى الخَلْقَ)، أي: هذّبَ صورَتَه وأكملَ خَلْقَهُ في أحسنِ تقويم[3]. فمَعنى (سَوّاكَ) في الآية: (أحسنَ خلقَكَ بعد أنِ ابتَدَأكَ مِنَ العَدَمِ، فسوَّى أعضاءَكَ، وناسَبَ بينَ قواكَ، وأكْمَلَ صورَتَكَ البشريّةَ على الهيئةِ التي تليقُ بكَ، من غيرِ زيادةٍ تُشَوِّهُ، ولا نُقصانٍ يُخِلُّ).

3) ﴿فَعَدَلَكَ﴾: (عدل) أصْلٌ يَدورُ على مَعْنَى الاستِواءِ والتَّوازُنِ والتَّناسُبِ والتَّقْويمِ والمَيْلِ إلَى جِهَةِ الاعتِدالِ والتَّسْويَةِ بَيْنَ الأشْياءِ، فالعَدْلُ: المَرْضيُّ مِنَ النّاسِ قَوْلُهُ وحُكْمُهُ[4]، ويُقالُ: (عَدَلَ الشَّيْءَ) إذا قَوَّمَهُ، وجَعَلَهُ مُسْتَوِيًا مُعْتَدِلًا، و(عَدَلَ الخَلْقَ)؛ إذا صَوَّرَهُ تَصْويرًا مُسْتَقيمًا، لا مَيْلَ فيهِ ولا اضْطِرابَ، فمَعنَى (عَدلَكَ) في الآية: (أعْطاكَ أيُّها الإنسانُ التَّوازُنَ الكاملَ في خَلْقِكَ، فرَكَّبَ أعْضاءَكَ على هَيْئَةٍ مُتَناسِبَةٍ، لا اخْتِلالَ فيها، ولا زيادَةَ تُشَوِّهُ، ولا نُقْصانَ يُخِلُّ، وجَعَلَكَ مُعْتَدِلَ القامَةِ، مُستَقيمَ البِنْيَةِ في ظاهِرِكَ وباطِنِك).

4) ﴿صُورَةٍ﴾: (صور) أصْلٌ يَدلُّ على الهيئةِ الظاهرةِ للشيءِ، والشكلِ الذي يكونُ عليه الشيءُ حِسًّا أو تقديرًا، فالصّورَةُ: ما يُنتَقَشُ به الأعيان، ويَتَمَيّز بها غيرُها، وذلك ضَرْبان: أحَدُهما محسوسٌ يُدرِكه الخاصّة والعامّة، بَلْ يُدرِكه الإنسانُ وكَثيرٌ من الحيوان، كَصورَةِ الإنسانِ والفرَس، والحِمار بالمُعايَنَة، وهذا المعنى الحِسّيُّ هو الأصلُ عندَ الإطلاق، والثاني: مَعقولٌ يُدرِكُه الخاصّةُ دون العامّة، كالصّورَةِ التي اختَصَّ الإنسانُ بها من العقل، والرَّويَّة، والمعاني التي خُصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى الصّورَتَيْنِ أشارَ بقوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ [آل عمران: 6]، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، وقال هنا: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(2) أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المُعاصرة: (سوي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(4) الخليل، العين: (عدل).
(5) الأصفهانيّ، المفردات: (صور).

5) ﴿رَكَّبَكَ﴾: (ركب) أصلٌ يَدُلُّ على عُلوِّ شَيءٍ شَيئًا[1]، وعلى ضمِّ بعضِ الأشياءِ إلى بعضِها بحيثُ تصيرُ شَيئًا واحدًا متماسكًا، فالمُرَكَّبُ هو المُثبَتُ في الشَّيء، كتركيب الفصوص[2]، ويُقالُ: (رَكَّبَ الشيءَ)، أي: ألْحَقَ بعضَ أجزائِه ببعضٍ حتّى صارَت هيئةً واحدةً، و(رَكِبَ الشيءَ)، أي: عَلاهُ، واستولى عليه[3]، لكنَّ (التركيبَ) أخصُّ من (الرُّكوبِ)؛ لأنَّه يدلُّ على إحداثِ البِنيَةِ بتأليفِ أجزائِها ورَبطِها على نظامٍ مخصوصٍ، فمعنى ﴿رَكَّبَكَ﴾: (ألَّفَ أعضاءَك وأجزاءَك الظاهرةَ والباطنةَ تركيبًا مُحكَمًا دَقيقًا، وجَمَعَ ما فيك من قوًى ومَلَكاتٍ على وجْهٍ يُحَقِّقُ لكَ صِفةَ الإنسانِ، ويُهيِّئُك لِما خُلقتَ له من التمييزِ والتكليفِ)، وهذا التركيبُ يَشمَلُ الجانبَ المادّيَّ من أعضاءٍ وجوارحَ وأجهزةٍ جَسَديّةٍ، كما يَشمَلُ الجانبَ المعنويَّ من العقلِ، والنَّفسِ، والضميرِ، والإرادةِ، والاستعدادِ لمعرفةِ الخيرِ والشرِّ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عِـتـابٌ بَـلـيـغٌ للإنسان الغافِلِ بَينَ يَدَيْ مَشاهِدِ القيامَة

في هَذِهِ الآياتِ يوَجِّهُ الخطابُ الإلهيُّ سؤالًا استنكاريًّا فيه عَتْبٌ رفيقٌ ولَومٌ عَميقٌ للإنسانِ الغافلِ المُفَرِّطِ في حَقِّ رَبِّه، قائلًا له: (ما الذي خدَعَكَ حتّى اجتَرَأْتَ على معصيتِه، وأعرضتَ عن طاعةِ ربِّكَ الذي عَمَّ إحسانُه، واتَّسعَ فضلُه، وأمهَلَكَ رَغْمَ تقصيرِك، ولم يُعاجِلْكَ بعقوبةٍ؟) ثمّ يُذكِّرُه هذا الربُّ الكريمُ ببعضِ نِعَمِه العُظمَى عليه، قائلًا له: (الَّذي خلقَكَ من نُطفةٍ مَهينةٍ، فسوَّى خَلْقَكَ، وعدَّلَ أعضاءَكَ، فصَيَّرَكَ كاملَ البُنيةِ، مُعتَدِلَ الصّورَةِ، ركَّبَكَ على الهيئةِ التي شاءَها بحِكمَتِه، فجعَلَ لك السمعَ والبصرَ والفؤادَ، وهيَّأ لك أسبابَ الكرامةِ والتَّمييزِ).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركب).
(2) الخليل، العين: (ركب).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ركب).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالَةُ النِّداء:

العِتابُ الفَرْديُّ، بَعْدَ الانهيارِ الكَوْنيِّ

إقامَةُ أُسْلوبِ النِّداءِ بَعْدَ ذِكْرِ أَهْوالِ القيامَةِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هوَ تَحْويلٌ بَيانيٌّ مُفاجِئٌ، يَنْتَقِلُ بالسّامِعِ مِنْ مَشاهِدِ الكَوْنِ المُنْقَلِبِ والقُبورِ المُبَعْثَرَةِ، إلَى مواجَهَةٍ خاصَّةٍ وعِتابٍ مُباشِرٍ، فكَأنَّ القُرْآنَ بَعْدَ أنْ هَزَّ الوُجودَ كُلَّهُ، وقَلَبَ السَّماءَ والأرْضَ، أقْبَلَ على الإنسانِ وحْدَهُ يُسائِلُهُ عَنْ غَفْلَتِهِ، وبَعْدَ هَذا النِّداءِ المُفاجِئِ جاءَتِ المواجَهَةُ بالسُّؤالِ التَّوْبيخيِّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، فاقْتَرَنَ التَّوْبيخُ بالتَّذْكيرِ بصِفَةِ الكَرَمِ، على وجْهٍ يُلْقي في النَّفْسِ مَعْنَى الحَياءِ والخَجَلِ، كَأنَّ المُخاطَبَ أمامَ رَبٍّ مُتَفَضِّلٍ لا يَليقُ أنْ يُقابَلَ إحْسانُهُ بجُحودٍ وغُرورٍ.

فأُسلوبُ النِّداءِ في الآيَةِ لِلتَّنبيهِ بما سَيُلْقَى بَعدَهُ مِنَ الكَلامِ؛ تَنبيهًا يُشعِرُ بالاهتِمامِ والاستِدعاءِ لِسَماعِهِ؛ فلَيسَ النِّداءُ مُستَعْمَلًا في حَقيقَتِه؛ إذْ لَيسَ مُرادًا بِهِ طَلَبُ إقبالٍ، ولا هوَ موَجَّهٌ لِشَخْصٍ معيَّنٍ، أو جَماعَةٍ مُعَيَّنَةٍ، بَلْ مِثْلُهُ يوَجِّهُهُ المُتَكَلِّمُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُه، بقَصْدٍ أوْ بغَيرِ قَصْد[1].

دَلالَةُ التَّنبيهِ:

تَنبيهُ الغافِلِ، وتَهْيِئَةُ النَّفْسِ لِلْعِتاب

جيءَ بـ(ها) في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾ فاصِلَةً بَيْنَ المُنادَى وصِفَتِه؛ لِتُشْعِرَ السّامِعَ بجَلالِ المُخاطَبَةِ ووُجوبِ الانْتِباهِ إلَيْها، وهَذا التَّنْبيهُ مَقْصودٌ لِذاتِه؛ لأنَّ الإنْسانَ من طَبْعِهِ الغَفْلَةُ والاغْترار، فكانَ المَقامُ يَقْتَضي أنْ يُساقَ إلَيْهِ العِتابُ على نَحْوٍ يوقِظُهُ مِنْ هَذِهِ الغَفْلَةِ، فأتَى اللَّفْظُ في صورَةِ تَنْبيهٍ مُمَهِّدٍ لِلتَّوْبيخِ الَّذي بَعْدَهُ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، وبِهَذا يَكونُ التَّنْبيهُ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ قَدْ

(1) طنطاوي، الوسيط: 1/ 4457.

أفادَ تَشْديدَ الاسْتِماعِ، وتَهْيِئَةَ النَّفْسِ لِلتَّلَقّي، كَما يُفْعَلُ في المُخاطَباتِ العَظيمَةِ الَّتي لا يُرادُ فيها أنْ يَسْهوَ السّامِعُ عَنْ كَلِمَةٍ واحِدَةٍ.

سِرُّ العُدولِ في صِفَةِ المُنادَى:

بَلاغَةُ التَّحَوُّلِ مِنَ الإجمالِ إلَى المواجَهَة

عُدِلَ عَنِ التَّعْبيرِ بالنَّفْس - كما في الآيَةِ السّابِقَةِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ - إلَى التَّصْريحِ بالإنْسان في قَولِ اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لأنَّ المُرادَ هُنا التَّوْجيهُ إلَى جِنسِ الإنسانِ في طَبعِهِ المُتَساهِلِ المُغتَرِّ، فكَأنَّهُ قيلَ: (يا مَنْ طَبعُكَ الغُرورُ، ومَيلُكَ إلَى الغَفلَةِ، ما الَّذي غَرَّكَ؟)، وبِهَذا يَكونُ الانتِقالُ مِن (نَفْسٍ) إلَى ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ قَدْ جاءَ للانتِقالِ مِن مَقامِ العُمومِ في الحِسابِ، إلى مَقامِ التَّوْجيهِ الخاصِّ باللَّوْمِ والتَّوْبيخِ.

فالتَّعْبيرُ أوَّلًا بالنَّفْس في قَوْلِهِ تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جاءَ لإفادَةِ الاستِغْراقِ والتَّعْميم؛ إذ يَنْصَرِفُ إلَى كُلِّ نَفْسٍ على انفِرادِها عِنْدَ تَحَمُّلِها وِزْرَ أعْمالِها، ثُمَّ انتَقَلَ من العامّ - وهو كلُّ نَفسٍ - إلى الإنسان، وهوَ كلُّ مُخاطَبٍ مِن بَني آدَم، بقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ ديانَتِه[1]، فالمَقامُ في الأوَّلِ مَقامُ مَشْهَدٍ جامِعٍ يَتَناوَلُ الخَلْقَ كافَّةً في حالِ الحِسابِ، ثُمَّ انْتَقَلَ الكَلامُ إلَى المواجَهَةِ والعِتابِ.

وفي التَّعْبيرِ بالإنسانِ هُنا إشارَةٌ إلى تَكْريمِهِ بالإنسانيَّةِ، فهيَ أفْضَلُ ما يَتَمَيَّزُ بها عَن سائِرِ الأحياء؛ فاللَّفْظُ يُؤَكِّدُ مَعنَى اللَّوْمِ والتَّوْبيخِ في الآيَةِ، ويُقَوّي دَعْوَةَ الإنسانِ إلَى عَدَمِ الاغْتِرارِ بِحِلْمِ اللّه وعَفْوِه.

دَلالَةُ تَعْريفِ ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾:

عُمومُ الخِطابِ وشُمولُ المؤاخَذَة

(الـ) في قَولِ اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾؛ لتَعريف الجِنسِ[2]، فهو لِأجلِ الاستِغراقِ الجِنسيِّ؛ إذْ يَنصَرِفُ الخِطابُ إلَى

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن: 20/ 2.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 173.

جِنسِ الإنسانِ كافَّةً، دونَ أن يَختَصَّ بفَرْدٍ أو جيلٍ، فكُلُّ مَن يَندَرِجُ تَحتَ هَذا الجِنسِ هوَ مَعنيٌّ بالتَّوبيخِ والتَّسْفيهِ على غَفلَتِهِ واغترارِهِ، فإنَّ في طَبعِ الإنسانِ قابليَّةً لِهَذا الغُرورِ، كَأنَّ القُرآنَ يواجِهُ الخَلقَ في جِنسِهِم المُشتَرَكِ؛ ليَقولَ: (هَذِهِ علَّتُكُمُ الأصيلَةُ يا بَني آدَمَ)، والتَّعريفُ هُنا يَحمِلُ في طَيّاتِهِ التَّهويلَ والتَّفظيعَ؛ إذْ لا مَفَرَّ لأحَدٍ مِنَ الدُّخولِ في سُلطانِ هَذا العِتابِ، وبِهَذا يَتَبَيَّنُ أنَّ فائِدَةَ التَّعريفِ هيَ: إحاطَةُ الخِطابِ بجَميعِ النّاسِ، وإظهارُ كَونِ المُعاتَبَةِ لَيسَت أمرًا يَختَصُّ بفَرْدٍ مُعَيَّنٍ، بَل هيَ شَأنُ الإنسانِ في جِنسِهِ، فليَحذَرْ كُلُّ واحِدٍ على نَفْسِهِ.

وَيَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعْريفُ لِلعَهْدِ، على أنَّ المُرادَ بالمخاطَبِ هُنا أهلُ الكُفرِ والغَفْلَةِ خاصَّة، فلَيْسَ التَّعْريفُ للاستِغراقِ، وإنّما لتَعريفِ الحَقيقَةِ الَّتي هُم فيها مِنَ الكُفرِ والعِنادِ، فالفَرقُ بَينَ المَعنَى الأوَّلِ والمَعنَى الثّاني أنَّ (الـ) الجِنْسيَّةَ الاستِغراقيَّةَ تَدُلُّ على الإطلاقِ، وأمّا (الـ) العَهْديَّةُ؛ فهيَ تَدُلُّ على نَوعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ النّاسِ، والمُرادُ بِهِمُ الكَفَرَة، ففيها عُمومُ النَّوْعِ.

بَلاغَةُ الاستِفْهامِ بـ﴿مَا﴾:

التَّوبيخُ والتَّفْظيعُ في مواجَهَةِ الغُرورِ الإنسانيّ

الاستِفْهامُ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ استِفهامٌ مَجازيٌّ خَرَجَ مِن إرادَةِ حَقيقَتِهِ إلى مَعنَى الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّعجيبِ من الإشراكِ باللّه، أي: (لا موجِبَ لِلشِّرْكِ وإنكارِ البَعْثِ، إلّا أن يَكونَ ذَلِكَ غُرورًا غَرَّهُ الشَّيْطانُ؛ ولَيسَ المُرادُ مِن الاستِفْهامِ طَلَبَ الجَوابِ؛ إذ لا جَوابَ يُتَصَوَّرُ أن يَكونَ مَقبولًا أو مُستَساغًا، فالمُقتَضَى المَقاميُّ أنَّهُ استِفهامٌ تَوبيخيٌّ يُظهِرُ أنَّهُ لا شَيءَ يُمكِنُ أن يَكونَ سَبَبًا مَعقولًا لِغُرورِ الإنسانِ وانخِداعِهِ، خُصوصًا، وأنَّهُ اغْتَرَّ بِرَبٍّ مَوصوفٍ بالكَرَمِ.

وأوثِرَ الاستِفْهامُ بالأداةِ ﴿مَا﴾ في هَذا المَوْطِنِ دونَ غَيرِها مِن

أدَواتِ الاستِفهام؛ لإفادَةِ التَّعْميمِ والتَّحْقير، فهي تُطْلَقُ في الغالِبِ على ذَواتِ ما لا يَعقِلُ وأجناسِهِ وصِفاتِه[1]، فيُفيدُ السُّؤالُ بها أنَّ ما غَرَّ الإنْسانَ هوَ أمرٌ دَنيٌّ لا يَسْتَحِقُّ أنْ يُلْتَفَتَ إلَيْهِ، فإنَّهُ لَوْ تَفَكَّرَ العاقِلُ؛ لَما وجَدَ سبَبًا للغرور يُقابِلُ كَرَمَ رَبِّهِ، فصارَ مَعْنَى الاستِفهام: (أيُّ شَيْءٍ - مَهْما كانَ - يَصْلُحُ أنْ يَكونَ داعيًا لِغُرورِكَ وإغْفالِكَ؟ والحالُ أنَّ رَبَّكَ الَّذي اغْتَرَرْتَ بِهِ هوَ الكَريمُ الَّذي مَنَحَكَ أصْلَ الوُجودِ وجَمالَ التَّسْويَةِ والاعتِدالِ).

سِرُّ العُدولِ عَنِ التَّعْبيرِ بالمَوصول:

إيجازُ التَّوبيخ، وتَكثيفُ المَعنَى

عُدِلَ عنِ لتَّعْبيرِ بالاسمِ المَوْصولِ، كَأنْ يُقالَ: (ما الَّذي غَرَّكَ؟)، إلَى التَّعْبيرِ المُجَرَّدِ: ﴿مَا غَرَّكَ﴾؛ لِما في حَذْفِ المَوْصولِ من الإيجازِ الَّذي يُناسِبُ مَقامَ التَّوْبيخِ، فإنَّ الاستِفْهامَ هُنا لَيْسَ مُرادًا مِنْهُ طَلَبُ المَعْلوم، بَلْ إظْهارُ أنَّهُ لا سَبَبَ يُعْتَدُّ بِهِ في غُرورِ الإنْسانِ، ولَوْ قيلَ: (ما الَّذي غَرَّكَ؟)؛ لَأشْعَرَ التَّعْبيرُ بأنَّ هُناكَ سَبَبًا حَقيقيًّا يُمكِنُ أنْ يُذْكَرَ، ويُعَيَّنَ، بَيْنَما التَّرْكيبُ الواردُ أبْلَغُ في التَّسْفيهِ والتَّبْكيتِ؛ إذْ يَجْعَلُ الغُرورَ بذاتِهِ مَحَلَّ الاسْتِفْهامِ، كَأنَّهُ أمرٌ مُسْتَغْرَبٌ لا يَقومُ عَلَيْهِ بُرْهانٌ.

بلاغة استعمال مفردة الاغترار:

استِسلامُ المَغْرورِ للخُدعَةِ الواهيَة

جاءَ التَّعْبيرُ بالغُرورِ دونَ غَيْرِهِ مِن ألفاظِ الخَديعَةِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لأنَّ الغُرورَ يوحي بأنَّ المَغْرورَ لَهُ حَظٌّ مِن إيهامِ نَفْسِه، ومِنْ إضْفاءٍ على الباطِلِ مَظاهِرَ الحَقِّ، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: 20]، يعني: (ما الكافِرونَ إلّا في باطِلٍ)[2]، مِنْ ذلِكَ قَولُ حَسّانَ بْنِ ثابِتٍ، وهوَ يَهْجو أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ، ويَقولُ:

(1) المُبرّد، المُقتضب: 2/ 52، والزّركشيّ، البرهان: 4/ 402.
(2) ابن عباس، مسائل ابن الأزرق: 1/ 142.

تَمَنّيكَ الأمانيَّ مِنْ بَعيدٍ *** وقَوْلُ الكُفْرِ يَرْجِعُ في غُرورِ[1]

فَكانَ في اخْتيارِ هَذا اللَّفْظِ إشارَةٌ إلَى أنَّ الإنْسانَ هوَ السَّبَبُ الأوَّلُ في غُرورِهِ؛ إذْ لا يُتَصَوَّرُ أنْ يَكونَ رَبُّهُ الكَريمُ مَظِنَّةً لِغُرورٍ أبَدًا، فمُفْرَدَةُ الغُرورِ تُصَوِّرُ حالَ الإنْسانِ الَّذي أمِنَ مَكْرَ اللّه، وغَفَلَ عَنْ يَوْمِ الحِسابِ، وكَأنَّهُ مُسْتَسْلِمٌ لِخُدْعَةٍ واهِيَةٍ لا مَقومَ لَها.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي:

تَصويرٌ لِلغَفْلَةِ بأنَّها أمرٌ واقِعٌ لا يُنْكَر

جاءَ التَّعْبيرُ عَنْ فِعْلِ الغُرورِ بصيغَةِ الماضي في قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ ليُصَوِّرَهُ في أمرٍ قَدْ تَحَقَّقَ، واسْتَقَرَّ؛ لأنَّ المُرادَ لَيْسَ مُجَرَّدَ الاستِفْهامِ عَنِ السَّبَبِ، بلِ التَّوْبيخُ على حالٍ صارَت كَأنَّها ماضيَةٌ لا مَحالَةَ، فالإنْسانُ مُنْذُ أنْ أَلْهَتهُ لَذّاتُهُ، وغَرَّتهُ أمانيهِ، فقَدْ وُصِفَ بالغُرورِ، كَأنَّهُ أمرٌ فائِتٌ مُنْقَضٍ، وإنْ كانَ مُسْتَمِرًّا في الواقِعِ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ القُرْآنِ؛ إذْ يَسْتَعْمِلُ الماضي؛ لِلدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والتَّحَقُّقِ، وإن كانَ الأمرُ جاريًا ومُستَمِرًّا، فقيلَ: ﴿غَرَّكَ﴾ إظْهارًا؛ لأنَّ الغُرورَ قَدْ وقَعَ، وتَحَقَّقَ فيكَ أيُّها الإنْسانُ، فلا عُذْرَ بَعْدَهُ ولا مَفَرَّ.

دَلالَةُ الجارِّ والمَجْرور:

الغُرورُ بشأنِ اللّه سَبَبُ الإشْراكِ به

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالباءِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ لِلْمُلابَسَةِ، كَما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لُقمان: 33]، أيْ: لا يَغُرَّنَّكُم غُرورًا مُتَلَبِّسًا بشَأْنِ اللّه، أيْ: مُصاحِبًا لِشُؤونِ اللّه مُصاحَبَةً مَجازيَّةً، وإذْ كانَتِ المُلابَسَةُ لا تَتَصَوَّرُ ماهيَّتُها مَعَ الذَّواتِ، فقَدْ تَعَيَّنَ في باءِ المُلابَسَةِ؛ إذا دَخَلَت على اسْمِ ذاتٍ أنْ يَكونَ مَعَها تَقْديرُ شَأْنٍ مِنْ شُؤونِ الذّاتِ يُفْهَمُ مِنَ المَقامِ، فالمَعْنَى هُنا: (ما غَرَّكَ بالإشْراكِ بِرَبِّكَ)، كَما يَدُلُّ عَلَيْهِ

(1) السيوطيّ، الإتقان: 1/ 128، ولم يرد البيت في: (الديوان)، واستشهد به ابن هشام في: (سيرة ابن هشام): 3/ 90.

قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ الآيَةُ، فإنَّ مُنْكِرَ البَعْثِ يَوْمَئِذٍ لا يَكونُ إلّا مُشْرِكًا[1]، فجاءَ الحَذفُ والتَّعْدِيَةُ المَجازِيَّةُ بالباءِ لِلدَّلالَةِ على أنَّ الغُرورَ كَأنَّهُ تَعَلَّقَ بالرَّبِّ نَفْسِهِ، فصارَ أبْلَغَ في التَّوْبيخِ؛ إذْ كَيْفَ يَغْتَرُّ الإنْسانُ بِرَبِّهِ الكَريمِ، وهوَ الَّذي خَلَقَهُ، فسَوّاهُ فعَدَلَهُ؟.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّة:

إيقاظُ الغافِلِ المَغرورِ وتَوبيخُهُ على اغتِرارِهِ بمَنْ لا يَنبَغي أنْ يُغتَرَّ به

آثَرَ القُرآنُ الكَريمُ التَّعْبيرَ بعُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ دونَ ذِكْرِ اسْمِ الجَلالَةِ؛ لِما في مَعْنَى الرَّبِّ مِنَ المُلْكِ والإنْشاءِ والرِّفْقِ، ولما فيهِ من تَذْكيرِ الإنْسانِ بموجِباتِ استِحْقاقِ الرَّبِّ طاعَةَ مَرْبوبِهِ؛ لأنَّ الرَّبَّ هوَ المُتَكَفِّلُ بالتَّدْبيرِ والتَّرْبيَةِ والإنْعامِ مُنْذُ أوَّلِ النَّشْأةِ، فالتَّذْكيرُ بهَذا الوَصْفِ فيهِ إيقاظٌ لِلْغافِلِ المَغْرورِ، وتَوْبيخٌ لَهُ على أنَّهُ اغْتَرَّ بمَنْ لا يَنْبَغي أنْ يُغْتَرَّ بهِ، بَلْ يَجِبُ أنْ يُطاعَ، ويُعَظَّمَ.

دَلالَةُ الإضافَة:

الإشْعارُ بُصوصِ النِّعَمِ وشِدَّةِ القُرْب

جاءَ ذِكْرُ الرَّبِّ مَضافًا إلَى ضَميرِ المُخاطَبِ، في قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لِلإشْعارِ بخُصوصِ النِّعْمَةِ وشِدَّةِ الاتِّصالِ، فكَأنَّهُ يَقولُ: (هوَ رَبُّكَ أنْتَ، الَّذي تَكَفَّلَ بإنْشائِكَ وتَسْويَتِكَ وتَعْديلِكَ، فكَيْفَ يَسوغُ لَكَ أنْ تَكونَ غَريرًا بهِ؟).

ففي الإضافَةِ تَشْريفٌ لِلْمُخاطَبِ، وإقامَةٌ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ، فإضافَةُ الشَّيْءِ إلَى المُخاطَبِ تُشْعِرُ بخُصوصِ صِلَةٍ بَيْنَ المُضافِ والمُضافِ إلَيْهِ، وقُربِهِ منه، فهوَ سبحانه الَّذي تَوَلَّى خَلْقَكَ، وسَوّاكَ، وعَدَلَكَ، فلا مَجالَ لأنْ تَغْتَرَّ بهِ، أو تُعْرِضَ عَنْهُ.

بَلاغَةُ انتِقاءِ صِفَةِ ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾:

في انتِقاءِ: صِفَةِ الكَريمِ دونَ غَيْرِها مِنْ صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ، في قَولِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 174.

تَـقـويَـةُ صِـفَـةِ الـكَـرَمِ لِمَعنَى التَّوْبيخِ لِلإنسانِ المُغتَرِّ

اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ نُكْتَةٌ بَليغَة، فإنَّ المُقامَ لَيْسَ مَقامَ إظْهارِ القُدْرَةِ أوِ العَدْلِ، وإنَّما هوَ مَقامُ تَعْجيبٍ مِنْ جُرْأةِ الإنْسانِ على عِصْيانِ رَبِّهِ، مَعَ أنَّهُ رَبٌّ مُتَّصِفٌ بأجَلِّ صِفاتِ الإنْعامِ والفَضْلِ، فاخْتيارُ صِفَةِ الكَريمِ يُظْهِرُ أنَّ غُرورَ الإنْسانِ إنَّما حَدَثَ مِنْ جِهَةِ إمعانِهِ في سوءِ الاستِغْلالِ لِرِفْقِ رَبِّهِ وحِلْمِهِ، وفي ذَلِكَ تَهويلٌ لِعُذْرِهِ وتَأْكيدٌ لإثْمِهِ؛ إذْ كَيْفَ يَسْتَجيزُ المَخْلوقُ أنْ يَغْتَرَّ بكَرَمِ مَنْ أغْدَقَ نِعَمَهُ وأفْضالَه عَلَيه، مِنَ الخَلْقِ والتَّسْويَةِ والتَّعْديل؟ فالكَريمُ حَقيقٌ بالشُّكْرِ والطّاعَة[1].

دَلالَةُ الجَمعِ بَينَ الوَصْفَين:

جاءَ التَّعبيرُ بوَصفَي الرُّبوبيَّةِ والكَرَم في قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾؛ لِلْجَمعِ بَيْنَ عُنْوانِ التَّرْبيَةِ والإنْعامِ ومَعْنَى الفَضْلِ الجَزيلِ، فيَظْهَرُ أنَّ المُخاطَبَ ما كانَ يَنْبَغي لَهُ إلّا أنْ يَكونَ مُعَظِّمًا شَكورًا، وفي الجَمعِ بَينَهُما ذِكرٌ لِموجِبِ الشُّكْر، وإسْقاطٌ لِكُلِّ شُبهَةٍ في الاغترار.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَوصولِيَّة:

المَـوصـولُ مَـعَ صِلَتِه أقـوَى في العِتابِ والتَّوبيخ

جاءَ التَّعْبيرُ بالاسمِ المَوصولِ ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ (بِرَبِّكَ الخالِقِ)؛ لِما فيهِ مِنْ دَلالَةِ التَّعظيم[2]، وفيهِ مِنْ خِلالِ صِلَتِه دَعْوَةٌ لِلنَّظَرِ إلَى الفِعْلِ المُعَيَّنِ الَّذي لا يَسْتَطيعُ الإنْسانُ إنْكارَهُ، وهوَ أنْ خَلَقَهُ رَبُّهُ، وأنْشَأهُ مِنْ عَدَم، فالمَوْصولُ مَعَ صِلَتِهِ يُعَدُّ أقْوَى في التَّوْبيخِ؛ لأنَّهُ يُلْزِمُ المُخاطَبَ بالاعْترافِ بالمُنْعَمِ عَلَيْهِ في أعْظَمِ ما يَملِكُ، وهوَ وُجودُهُ نَفْسُهُ، ولَوْ قيلَ: (الخالِقُ)؛ لَكانَ ذِكْرُ الصِّفَةِ على سَبيلِ الإطْلاقِ، دونَ أنْ تَتَّجِهَ بِهِ الأنْظارُ إلَى حَقيقَةٍ مُحَسَّةٍ قَدْ وقَعَت على المُخاطَبِ بنَفْسِهِ، فالاسْمُ المَوْصولُ هُنا أبْلَغُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 175.
(2) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/ 111.

في إيقاعِ الحُجَّةِ وتَثْبيتِ المُنازَعَةِ في مَوْضِعِ التَّوْبيخِ، وهوَ أيْضًا أشَدُّ موافَقَةً لِسياقِ التَّفْصيلِ بَعْدَهُ: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾.

بَلاغَةُ العُدولِ إلَى الفِعْليَّة:

الـجَـمـعُ بَـينَ تَـعـظـيـمِ الـلـه وتذكيرِ الإنسانِ بآلائِه

في اختِلافِ التَّعْبيرِ بَينَ الاسمِ في قَوْلِ اللّه تعالَى: ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ وبَيْنَ الفِعْلِ في قَوْلِه تَعالَى: ﴿خَلَقَكَ﴾ نُكْتَةٌ بَلاغيَّةٌ جَليَّة؛ إذْ إنَّ الاسْمَ ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ دالٌّ على صِفَةٍ ذاتيَّةٍ ثابِتَةٍ لِلرَّبِّ، تَقْتَضي أنَّ كَرَمَهُ دائِمٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، وأنَّ إحْسانَهُ سابِغٌ على العِبادِ في جَميعِ أحْوالِهِم، فهوَ تَعْبيرٌ بالاسْمِ لِلدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والاسْتِمرارِ.

أمّا الفِعْلُ ﴿خَلَقَكَ﴾؛ فقَدْ جيءَ بِهِ لِلتَّنْبيهِ على فِعْلٍ مُحَدَّدٍ مُحَقَّقٍ، هوَ إيجادُ الإنْسانِ بَعْدَ أنْ لَم يَكُنْ شَيْئًا، وما تَرَتَّبَ على ذَلِكَ مِنْ تَسْويَتِهِ وتَعْديلِ خِلْقَتِهِ، فالاسْمُ لِلصِّفَةِ الأزَليَّةِ الدّائِمَةِ، والفِعْلُ لِلتَّصْويرِ المُشاهَدِ والمَظْهَرِ المُحَسَّسِ، وبِهَذا التَّنْويعِ جَمَعَ القُرْآنُ بَيْنَ تَثْبيتِ صِفَةٍ عامَّةٍ مُطْلَقَةٍ هيَ الكَرَمُ، وبَيْنَ إرْجاعِ النَّظَرِ إلَى نِعْمَةٍ مَعْلومَةٍ مُحَسَّةٍ هيَ الخَلْقُ والتَّسْويَةُ والتَّعْديلُ، وذَلِكَ أبْلَغُ في التَّوْبيخِ على الغُرورِ؛ إذْ يَجْمَعُ بَيْنَ تَعظيمِ المُنْعِمِ الدّائِمِ وبَيْنَ تَذْكيرِ المَخاطَبِ بحالِ نَفْسِهِ المَخْلوقَةِ.

تَوجيهُ التَّعبيرِ بالماضي:

دَلالَةُ الماضي على التَّوبيخِ والإلزام

جاءَ التَّعْبيرُ بصيغَةِ الماضي في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾؛ لِلدَّلالَةِ على التَّحَقُّقِ والإنْجازِ، فإنَّ الماضيَ يَسْتَدْعي إلَى الذِّهْنِ أمرًا قَدْ وقَعَ، واسْتَقَرَّ، فكَأنَّ المُخاطَبَ مَطْلوبٌ مِنْهُ أنْ يَسْتَحْضِرَ نَفْسَهُ مَخْلوقًا بَعْدَ أنْ لَم يَكُنْ شَيْئًا[1]، فيَكونَ في ذَلِكَ أبْلَغُ تَذْكيرٍ بنِعْمَةِ الإيجادِ، ولَم يُؤْتَ بالمُضارِعِ (يَخْلُقُكَ)؛ لأنَّهُ يوحي بالاستِمرارِ في الوَقْتِ الحاضِرِ، والمَقامُ هوَ الإلزامُ بنِعْمَةٍ مُحَقَّقَةٍ، قَدْ وجَدَ الإنسانُ

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/ 110.

آثارَها في نَفْسِهِ وجِسْمِهِ، فاستِعْمالُ الماضي يُثْبِتُ التَّبْكيتَ، ويُرَكِّزُ العِبْرَةَ؛ إذْ يَجْعَلُ المَعْنَى كَأَنَّهُ أمامَ العَيْنِ، ويَكْشِفُ سوءَ الغُرورِ مِنَ المَغْرورِ بَعْدَ هَذِهِ الحَقيقَةِ المُحَقَّقَةِ.

دَلالَةُ الفاء:

التَّرتيبُ والتَّصويرُ المُتَدَرِّجُ لِلنِّعْمَة

جاءَ التعبيرُ بالفاءِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ دونَ غَيرِها مِنْ حُروفِ العَطْفِ؛ لإفادةِ التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ[1]، باعتبارِ أنَّ الخَلْقَ هوَ أوَّلُ الإيجاد؛ فالتَّسْويَةُ جاءَت تاليَةً لِفِعْلِ الخَلْقِ مُباشَرَةً، دونَ فاصِلٍ، فكَأَنَّهُ قيلَ: (خَلَقَكَ، فإذا أنْتَ مُسَوًّى مُعَدٌّ في أحْسَنِ قِوام)، وهَذا التَّرْتيبُ يُشْعِرُ بالعِنايَةِ والقَصْدِ المُحْكَمِ في تَدْبيرِ أمرِ الإنْسانِ، ودَلالَتُها في المَقامِ لَيْسَت مُجَرَّدَ التَّعاقُبِ الزَّمَنيّ، بَلْ هيَ إشارَةٌ إلَى الارتِباطِ المُحْكَمِ بَيْنَ المُقَدِّمَةِ والنَّتيجَةِ؛ فإنَّ الخَلْقَ هوَ أصْلٌ، والتَّسْويَةَ مُرَتَّبَةٌ عَلَيْهِ كَثَمَرَةٍ لا تَتَخَلَّفُ، فكانَ في إيرادِ الفاءِ تَفْصيلٌ بَيانيٌّ يَكْشِفُ تَدَرُّجَ النِّعْمَةِ، ويُقَرِّرُ كَمالَ التَّصْرِيفِ الرَّبّانيِّ.

وَيَجوزُ أنْ تَكونَ الفاءُ لِلتَّفْريعِ؛ باعتبارِ التَّسْويَةِ جُزءًا مِنْ عَمَليَّةِ الخَلْقِ الشّامِلَةِ؛ إذْ فرَّعَ فِعْلَ (سَوّاكَ) على ﴿خَلَقَكَ﴾، وفِعْلَ (عَدَّلَكَ) على (سَوّاكَ)؛ تَفْريعًا في الذِّكْرِ، نَظَرًا إلَى كَوْنِ مَعانيها مُتَرَتِّبَةً في اعْتِبارِ المُعْتَبِرِ، وإنْ كانَ جَميعُها حاصِلًا في وقْتٍ واحِدٍ، فلا تَكونُ الفاءُ لِلتَّعْقيبِ؛ إذْ هيَ أطْوارُ التَّكْوينِ مِنْ حينِ كَوْنِهِ مُضْغَةً إلَى تَمامِ خَلْقِهِ، فكانَ لِلْفاءِ في عَطْفِها أحْسَنُ وقْعٍ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: 2 - 3][2].

دَلالَةُ تَرْتيبِ التَّسْويَةِ على الخَلْق:

تَرتيبُ النِّعَمِ الإلَهيَّةِ على وجْهِ الكَمال

جاءَ النَّظْمُ القُرآنيُّ بتَرتيبٍ دَقيقٍ في تَقديمِ فِعلِ الخَلْقِ على التَّسويَةِ مِنْ قَولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾؛ مُراعاةً لِتَرتيبِ

(1) سيبويه، الكتاب: 1/ 218.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 176.

الإيجاد؛ فإنَّ الخَلْقَ إخْراجٌ لِلمَوْجودِ مِنْ عَدَمٍ، وذَلِكَ هوَ البِدايَةُ الأولَى الَّتي لا مَجالَ لِلتَّسْوِيَةِ قَبْلَها، ثُمَّ جاءَتِ التَّسْوِيَةُ بَعْدَهُ دَلالَةً على أنَّ الإيجادَ لَم يَكُنْ هَمَلًا، بَلْ تَبِعَهُ تَهْيِئَةٌ وتَنْسيقٌ وتَأْليفٌ لِلصّورَةِ البَشَريَّةِ على نِظامِ الاعتِدالِ والكَمالِ، وفي هَذا التَّرْتيبِ مَعْنًى بَليغٌ يُصَوِّرُ مَراحِلَ الإنْعامِ على الإنْسانِ؛ فإنَّهُ لَوْ لَم يُخْلَقْ أصْلًا لَما احْتيجَ إلَى تَسْوِيَةٍ، ولَوْ خُلِقَ بلا تَسْوِيَةٍ؛ لَكانَ مَسْلوبًا مَقامَ الإنسانيَّةِ الَّتي هيَ مَظْهَرُ الكَرامَةِ والاصْطِفاءِ، وأيضًا فإنَّ تَرتيبَ التَّسْوِيَةِ على الخَلْقِ يَحمِلُ صِفَةَ التَّدَرُّجِ والتَّرَقّي في كَمالِ الخَلقِ وتَمامِه.

بَلاغَةُ استِعْمالِ مُفْرَدَةِ التَّسويَة:

تَصويرٌ دَقيقٌ لِجَمالِ الخِلْقَةِ وكَمالِ التَّسْوِيَة

إنَّ اخْتيارَ فِعلِ التَّسوية في قَولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ يَحْمِلُ في طَيّاتِهِ إشارَةً بَليغَةً إلَى أنَّ عَمَلَ الخَلْقِ لَم يَكُنْ مَحْضَ إيجادٍ بَعْدَ العَدَمِ، بَلْ هوَ إحْكامٌ وتَنْسيقٌ، وعِنايَةٌ مُفَصَّلَةٌ بتَرْتيبِ القوَى والأعْضاءِ على ما يُلائِمُ المَقاصِدَ العُلْيا الَّتي خُلِقَ الإنْسانُ لَها، فالتَّسْوِيَةُ تُفيدُ مَعْنًى زائِدًا على مَعْنَى الخَلْقِ، وهوَ إقامَةُ الخِلْقَةِ على نِظامِ الاعْتِدالِ وجَمالِ التَّرْكيبِ، والإحكامُ والتقويمُ والتناسبُ في التكوينِ، ففي قولِهِ تعالى: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ في أحسَنِ تقويمٍ؛ تسويةً في خَلقِهِ الظّاهرِ، مِن تَناسُقِ الجوارحِ، وتناسُبِ الأطرافِ، واعتدالِ الهيئةِ، وتسويةً في خلقِه الباطنِ، من عقلٍ راجحٍ، وفِطرةٍ مستقيمةٍ، واستعدادٍ للتمييزِ بينَ الخيرِ والشرِّ، فلَيسَت تَسويَةُ الإنسانِ تَسويَةَ مادَّةٍ فقَط، بَلْ تَسويَةُ صورَةٍ ومَعْنًى، جَسَدٍ وروح، ظاهِرٍ وباطِن، وفي التَّعْبيرِ بهَذا اللَّفْظِ مَسْحٌ لِقَلْبِ الإنْسانِ يُذَكِّرُهُ بنِعْمَةٍ ماثِلَةٍ في كُلِّ لَحْظَةٍ؛ إذْ لَوْ تَأمَّلَ هَيْئَةَ وجْهِهِ أو تَناسُقَ جَوارِحِهِ؛ لَرَأى أنَّ المُسَوّيَ لَهُ قَدْ أسْبَغَ عَلَيْهِ مِنَ الإتقانِ ما يَجْعَلُهُ يَصْطَفي، ويَتَمَيَّزُ على سائِرِ المَخْلوقاتِ.

دَلالَةُ الفاء:

تَـدَرُّجُ النِّـعـمَةِ مِـنَ الخَـلْـقِ إلى كَمالِ الاعتِدال

الفاءُ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ تُفيدُ التَّرْتيبَ والتَّعْقيب، جاءَت بَعْدَ ذِكْرِ التَّسْويَةِ؛ لِتَدُلَّ على أنَّ العَدْلَ والاعْتِدالَ كانا ثَمَرَةً مُتَرَتِّبَةً على التَّسْويَةِ، كَما كانَتِ التَّسْويَةُ نَفْسُها مُتَرَتِّبَةً على الخَلْقِ، فالنَّصُّ يَرْسُمُ تَدَرُّجًا بَديعًا لِنِعَمِ اللّه على الإنسانِ: خَلْقٌ، ثُمَّ تَسْويَةٌ، ثُمَّ تَعديل، وفي هَذا التَّعاقُبِ تَصْويرٌ لِمَراحِلِ خَلْقِ الإنسانِ المُتَتالِيَة؛ لأنَّ التَّسْويَةَ الَّتي هيَ تَهْيِئَةُ الأعْضاءِ وتَنْسيقُ البُنْيَةِ، لا تُؤْتي غايَتَها إلّا إذا انْضَمَّ إلَيْها التَّعْديلُ في النِّسَبِ والقوَى، فالفاءُ لَها دَورٌ أصيلٌ في هَذا المَعْنَى الدَّقيقِ؛ لأنَّ الخَلْقَ أصْلٌ، والتَّسْويَةَ تَكْميلٌ لِلْخَلْقِ، والعَدْلَ تَكْميلٌ لِلتَّسْويَةِ، وهَذا مِمّا يُشْعِرُ بأنَّ الإنْعامَ الإلَهيَّ جاءَ على مَراتِبَ مُتَراقِيَةٍ، كُلُّ دَرَجَةٍ مِنْها تُفْضي إلَى الأُخْرَى، حَتَّى يَتِمَّ المَنْحُ، ويَكْمُلَ التَّكْريمُ.

دَلالَةُ تَرتيبِ التَّعديلِ على التَّسْويَة:

بَـيـانُ مَـراحِـلِ الإنعامِ الإلَهيّ

إنَّ تَرْتيبَ الفِعْلِ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بَعْدَ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ جاءَ على نَسَقٍ بَلاغيٍّ يُفيدُ تَدَرُّجَ العِنايَةِ الإلَهيَّةِ بالإنْسانِ، فالتَّسْويَةُ أوَّلًا هيَ جَعْلُ الجَسَدِ في قامَةٍ مُسْتَوِيَةٍ وأعْضاءٍ مُناسِبَةٍ، وذَلِكَ ما يُشيرُ إلَى إخْراجِ الخَلْقِ في صورَةٍ تامَّةٍ، ثُمَّ يَأْتي بَعْدَهُ التَّعْديلُ، وهوَ أرْقَى مَرْتَبَةً؛ إذْ يَتَضَمَّنُ جَعْلَ القوَى مُعْتَدِلًا بَيْنَ الغَريزَةِ والعَقْلِ، وبَيْنَ الجِسْمِ والرّوحِ، فيَصيرُ الإنسانُ مُهَيَّأً لِلتَّكْليفِ والاخْتيارِ، فإذا كانَت ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ دالَّةً على جَمالِ البُنْيَةِ وإتقانِ الخَلْقِ، فإنَّ ﴿فَعَدَلَكَ﴾ تَدُلُّ على حِكْمَةِ التَّقْديرِ ووَضْعِ كُلِّ جارِحَةٍ وقوَّةٍ في مَوْضِعِها، وبِذَلِكَ يَكونُ التَّرْتيبُ مُشيرًا إلَى تَرَقّي الإنْعامِ: مِن خَلْقٍ، إلَى تَسْويَةٍ، إلَى تَعْديلٍ.

بَلاغَةُ استِعمالِ مادَّةِ العَدْل:

عَـقْـدٌ بَـلاغـيٌّ يَـجـمَـعُ بَـيـنَ الخِلقَةِ والقيَم

إنَّ استِعْمالَ فِعْلِ العَدْلِ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ يَحْمِلُ بَلاغَةً رَفيعَةً؛ إذْ هوَ لا يَقْتَصِرُ على مَعْنَى التَّقْويمِ في

الخَلْقِ، بَلْ يَتَضَمَّنُ مَعَ ذَلِكَ إشارَةً إلَى جَعْلِ الإنْسانِ في نِسْبَةٍ مُعْتَدِلَةٍ بَيْنَ القوَى والغَرائِزِ، وبَيْنَ الجِسْمِ والرّوحِ، فاللَّفْظُ يُفيدُ التَّعْديلَ بَيْنَ الأطْرافِ والمَلَكاتِ، كَما يُفيدُ التَّسْوِيَةَ في الخِلْقَةِ والقامَةِ، فمَعْنَى (عَدَلَك) في الآية: أنَّ اللّه خَلَقَكَ أيُّها الإنسانُ على أحْسَنِ وجْهٍ مِنَ الاعتِدالِ والتَّناسُبِ، ورَكَّبَ أجْزاءَكَ بحَيْثُ لا يُمكِنُ أنْ يُضافَ إلَيْكَ شَيْءٌ إلّا أفْسَدَكَ، ولا يُنْقَصَ مِنْكَ شَيْءٌ إلّا أضَرَّ بكَ، فجاءَ خَلْقُكَ بَيْنَ الإفْراطِ والتَّفْريطِ، كَما جاءَ عَقْلُكَ بَيْنَ الغَريزَةِ الخالِصَةِ والعَجْزِ التّامِّ.

وَمِنْ هُنا كانَ ذِكْرُ العَدْلِ مُناسِبًا لِسياقِ التَّوْبيخِ؛ لِأنَّهُ يُذَكِّرُ الإنْسانَ بأنَّ اللّه تَعالَى لَم يُعْطِهِ صورَةً فقَطْ، بَلْ جَعَلَهُ كائِنًا مُتَّزِنًا مُهَيَّأً لِلْفِكْرِ والإرادَةِ والاخْتيارِ؛ فكانَ مِنَ المُسْتَغْرَبِ أنْ يَنْحَرِفَ عَمّا هوَ مَعْدولٌ فِطْرَةً إلَيْهِ، وبِهَذا يَتَجَلَّى أنَّ لَفْظَ (عَدَلَكَ) يَجْمَعُ بَيْنَ مَعْنَى الاعْتِدالِ الحِسّيِّ والاعْتِدالِ المَعْنَويِّ، وهوَ مِمّا يُشيرُ إلَى كَرامَةِ الإنْسانِ وإلَى مَسْؤوليَّتِهِ في الوُجودِ؛ إذْ نَلمَحُ في كَلِمَةٍ واحِدَةٍ مِثْلَ: (عَدَلَكَ) عَقْدًا يَجْمَعُ خَلَقاتِ البِنْيَةِ البَدَنيَّةِ مَعَ القيمَةِ الأخْلاقيَّةِ؛ حَتَّى يَصيرَ الإنْسانُ شاهِدًا على نَفْسِهِ أنَّهُ أُعْطيَ مِفْتاحَ الاسْتِقامَةِ، ثُمَّ أغْفَلَهُ.

بَلاغَةُ تَرتيبِ الأفْعال:

التَّدَرُّجُ في النِّعَمِ إيقاظٌ لِغَفْلَةِ الإنسان

إنَ ترتيبَ الأفْعالِ: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ هو مِنْ قَبيلِ فنِّ التَّرَقّي، فكَأنَّهُ يَنْقُلُ السّامِعَ مِن نِعْمَةِ الإيجادِ إلَى نِعْمَةِ التَّسْوِيَةِ، ثُمَّ إلَى نِعْمَةِ الاعتِدالِ في البُنْيَةِ والطَّبْعِ، وهيَ أخصُّ وجوهِ الجمالِ والاعتدالِ في الخلقةِ، وكُلُّ ذَلِكَ يُملي على العَقْلِ أنْ يَسْتَحْيِيَ مِنَ الاغترارِ الَّذي نَهَى عَنْهُ الخِطابُ العَزيزُ بقَولِه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، وفي هَذا التَّرتيبِ إبرازُ كَمالِ التَّدبيرِ ومَظْهَرِ القُدرَةِ الإلَهيَّةِ في خَلقِ الإنسانِ وكَمالِ الامتِنانِ عَلَيه.

وجاءَ تَرتيبُ هَذِهِ الأفعالِ على نَسَقٍ يُصَوِّرُ تَدَرُّجَ مَراتِبِ التَّكوينِ الإنسانيِّ على أكمَلِ وجهٍ، فالبِدايَةُ بالخَلْقِ دَليلٌ على إيجادِ الجَوهَرِ بَعدَ العَدَمِ، ثُمَّ أُتبِعَ بالتَّسْوِيَةِ، وهُيَ إعطاءُ القامَةِ والاستِواءِ والمَظهَرِ الحَسَنِ، ثُمَّ جاءَ العَدْلُ والتَّعْديلُ؛ ليُفيدَ موازَنَةَ الأعضاءِ وتَقسيمَها على نَحوٍ مُتَناسِبٍ؛ تَمهيدًا لقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

القراءات الواردة في ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وتوجيهها وبلاغتها:

بديع خلق الله للإنسان

قرأ الكوفيّون بتخفيف الدَّالِ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، وقرأ الباقون بِتَشْديدِهَا: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ [1]. فمن قرأ بالتخفيف فعلى معنى: (عَدَلَ بَعْضُك ببعض، فصِرْتَ معتدلَ الخَلْق متناسِبَه، فلا تفاوت في خلقك)، وقيل: معناه: (عَدَلك أي: شَبَهَ أبيك أو خالك أو عمك)، أي: (صَرَفك إلى شَبَهِ مَن شاء مِن قرابتك). ومن قرأ بالتشديد فعلى معنى: (سوَّى خلقك في أحسن صورة وأكمل تقويم، فجعلك قائمًا، ولم يجعلك كالبهائم متطأطئًا)[2]. وقراءة التشديد فيها مشاكلة ﴿رَكَّبَكَ﴾ بعدها.

دَلالَةُ ﴿فِيٓ﴾:

دَلالَةُ الانْدِراجِ والاحْتِواءِ في سِياقِ التَّذكيرِ بالقُدرَةِ الإلَهيَّة

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بحَرْفِ الظَّرفيَّةِ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؛ لِما يَحمِلُهُ مِن دَلالَةٍ مُناسِبٍ لِهذا السِّياقِ، يُمَيِّزُهُ عَن غَيرِهِ مِنَ الحُروف، فهوَ لَيْسَ مُجَرَّدَ حَرْفِ جَرٍّ يَدُلُّ على الظَّرْفيَّةِ المَكانيَّةِ، بَلْ هوَ مَسوقٌ لِإفادَةِ الاحتواءِ والاندراجِ، كَأنَّ الإنْسانَ مُحاطٌ بالصّورَةِ، الَّتي أرادَها اللّه لَهُ، لا مَفَرَّ لَهُ عَنْها؛ لذلك كانَ التَّعْبيرُ بالحَرْفِ ﴿فِيٓ﴾ يُفيدُ أنَّ الصّورَةَ حاصِرَةٌ لِجَميعِ ذاتِ المَخْلوقِ، وأنَّهُ مُنْدَرِجٌ فيها، كانْدِراجِ الجِسْمِ في المَكانِ، وهَذا

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 399.
(2) مكّي، الكشف: 2/ 364.

أَبْلَغُ مِنْ أنْ يُقالَ: (على أيِّ صورَةٍ) أو (بِأيِّ صورَةٍ)؛ إذْ لا يُفيدُ ذَلِكَ مَعْنَى الاحتِواءِ التّامِّ، الَّذي يوحي بأنَّ الإنْسانَ مُرَكَّبٌ في تِلْكَ الصّورَةِ الَّتي اصْطَفاها لَهُ، ومِنْ فوائِدِ التَّعبيرِ بها تجسيدُ مَعْنَى الاحتِواءِ الَّذي يَكْشِفُ لِلإنْسانِ ضَعْفَهُ وانْطِواءَهُ تَحْتَ سُلْطانِ القُدْرَةِ الإلَهيَّة، ليَسْتَحْيِيَ مِنَ الاغْتِرارِ والانخِداعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿أَيّ﴾:

كَمالُ المَشيئَةِ الإلَهيَّة، والعِتابُ الضِّمنيُّ لِلإنسان

آثَرَ القرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بـ﴿أَيّ﴾، في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؛ لِما تَحمِلُهُ مِن مَعنَى الإبْهام، فأصلُ معناها يَظْهَرُ بالمُضافِ إليه، فتُستَعْمَلُ لِلعاقِلِ ولِغَيرِه[1]، وتَقَعُ على المُفْرَدِ والجَمعِ، وجاء هَذا الإبْهامُ؛ ليَدُلَّ على أنَّ المَجالَ مُتَعَدِّدُ الجِهاتِ، وأنَّ المُرادَ إفادَةُ التَّنَوُّعِ والاختِلافِ، لا التَّعْيينُ والتَّحْديدُ.

وَمِنْ فوائِدِ استِعمالِ ﴿أَيّ﴾ في الآيَةِ تَعَدُّدُ المُرادِ المُحتَمَلِ بها، فيَجوزُ أنْ يكون مَعناها الاستفهامَ، والمراد بها الكِنايةُ عنِ التَّعَجُّبِ من حالِ ما أُضيفَت إليه، لِما فيهِ منَ الكَمالِ والعَظَمَةِ، فكانَ ذلكَ مَنْشَأَ دَلالَتِها على الكَمالِ، ويَجوزُ أن تكون مَوصولَة[2]، على معنى (رَكَّبَكَ في الصّورَةِ الَّتي شاء)، وهذا يَدُلُّ على أنَّ مَشيئَةَ اللّه تَعالَى مُطْلَقَةٌ في أنْ يُرَكِّبَ الإنْسانَ على أيِّ صورَةٍ أرادَها، مِنْ طولٍ أو قِصَرٍ، ومِنْ حُسْنٍ أو قُبْحٍ، ومِنْ قوَّةٍ أو ضَعْفٍ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِن اختِلافِ الأحْوالِ والخِلقاتِ، وفي هَذا التَّنَوُّعِ تَحفيزٌ لِلعَقْلِ إلَى التَّفَكُّرِ في عَظيمِ قُدرَتِهِ سُبحانَهُ الَّتي لا حَدَّ لَها.

دَلالَةُ تَنكيرِ ﴿صُورَةٖ﴾:

تَفخيمُ القُدرَة، وتَعظيمُ الصّورَة

إنَّ تَنْكيرَ كَلِمَةِ ﴿صُورَةٖ﴾ في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ فيهِ دَلالَةٌ على التَّنَوُّعِ والكَثْرَة؛ لِيُشْعِرَ بأنَّ تَصاريفَ الصّوَرِ

(1) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/ 129.
(2) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/ 129.

الَّتي يُمكِنُ أنْ يُخْلَقَ عَلَيْها الإنْسانُ غَيْرُ مَحْدودَةٍ، وأنَّ المَجالَ فيها مَفْتوحٌ على وُجوهٍ شَتَّى لا يُحْصيها عَدٌّ.

ومِن فوائدِ التَّنكيرِ أنَّهُ مَسوقٌ مَساقَ التَّهْويلِ، كَأنَّ المَقْصودَ تَذْكيرُ الإنْسانِ بأنَّهُ مُعَرَّضٌ أنْ يَكونَ على أيِّ صورَةٍ، فما وُجودُهُ في صورَةٍ مُعَيَّنَةٍ إلّا مَحْضُ فضْلٍ واخْتيارٍ إلَهيٍّ، ومِنَ الثّابِتِ في عِلْمِ الوِراثَةِ اليَوْمَ أنَّ الإنسانَ يَتَكَوَّنُ مِن ستَّةِ مِلْياراتٍ مِنَ الجيناتِ، يَحْصُلُ عَلَيْها بالتَّساوي مِن كِلا الوالِدَيْنِ، وكُلُّ جينٍ مِن هذهِ المِلياراتِ لَهُ وظيفَةٌ مُحَدَّدَةٌ، ويَتَحَمَّلُ مَسْؤوليَّةَ نَقْلِ صِفاتٍ قَدْ تَكونُ مَوْروثَةً مِن جِهَةِ الأُمِّ، والأخْوالِ والخالاتِ وأجْدادِهِم وجَدّاتِهِم، أوْ مِن جِهَةِ الأبِ، والأعْمامِ والعَمّاتِ وأُصولِهِم[1].

بَلْ لَوْ شاءَ رَكَّبَكَ في غيرِ صورَةِ الإنسانِ، فجاءَ تَصويرُكَ على صورَةِ الحَيَواناتِ المُتَعَدِّدَةِ في أشكالِها، فمِنَ الحَقائقِ العِلميَّةِ في خَلْقِ الكائناتِ الحَيوانيّةِ، وقُربِها من خَلْقِ الإنسانِ أنَّ كثيرًا من الحيواناتِ تشتركُ مع الإنسانِ في أكثرَ من 80٪ من الجيناتِ، التي لو رُكِّبَت بطريقةٍ معيَّنةٍ؛ لتغيَّرت صورةُ الإنسانِ إلى مَخلوقٍ حَيوانيٍّ آخر[2]، فيَستَحضِر السّامِعفي أنَّ المَشيئَةَ الإلَهيَّةَ كانَت قادِرَةً على أن تَجعَلَهُ في أيِّ صورَةٍ مِمّا يَخطُرُ، أو لا يَخطُرُ في البالِ، مِن طولٍ أو قِصرٍ، أو حُسنٍ أو قُبحٍ، أو قُدرَةٍ أو ضَعفٍ، أو حَتّى في صورَةٍ أُخرَى غَيرِ مَألوفَةٍ لِلنَّوعِ البَشَريِّ، وبِهَذا كانَ في التَّنْكيرِ إشْعارٌ بالقُدْرَةِ المُطْلَقَةِ الَّتي لا يَحُدُّها قَيْدٌ، فكُلُّ صورَةٍ مُمكِنَةٍ مُدْرَجَةٌ تَحْتَ مَشيئَةِ الخالِقِ.

دَلالَةُ ﴿مَّا﴾:

تَنَوُّعُ الدَّلالَةِ البَلاغِيَّةِ في الخِطابِ القُرآنيّ

التَّعبيرُ بـ﴿مَّا﴾ مِنْ قَولِ اللّه تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

(1) الدليمي، رحلة في ذاكرة الجينوم: 17 و99.
(2) الدليمي، رحلة في ذاكرة الجينوم، ص: 110.

مُتَعَدِدُ المُرادِ المُحتَمَلِ بها، فيجوز أنْ تكونَ ﴿مَّا﴾ موصولَةً - وهيَ الَّتي تَقَعُ على صِفاتِ ما يَعقِلُ[1] - و﴿شَآءَ﴾ صِلَتُها، والعائدُ مَحذوفٌ تقديرُه: (شاءَه)، والمعنى: (رَكَّبَكَ التَّركيبَ الَّذي شاءَه)، وناسَبَ إبهامَ ﴿أَيِّ﴾ وُرودُ ﴿مَّا﴾؛ لأنَّ "(ما) مُبهَمَةٌ، تَقَعُ على كُلِّ شيءٍ"[2]، وعُدِلَ عنِ التَّصريحِ بمصدرِ ﴿رَكَّبَكَ﴾ إلى إبْهامِهِ بـ﴿مَّا﴾ الموصولةِ؛ للدَّلالةِ؛ على تَفْخيمِ الموصولِ، بما في صِلَتِهِ منَ المَشيئَةِ المُسْنَدَةِ إلى ضميرِ الرَّبِّ الخالِقِ المُبْدِعِ الحَكيمِ، وناهيكَ بها[3].

وَيَجوزُ أن تكونَ صِلَةً بَينَ ﴿أَيِّ﴾ وفِعلِ المَشيئَةِ، والغَرَضُ مِنها التَّوكيدُ والتَّهويل، كَأنَّ التَّقديرَ: (في أيِّ صورَةٍ شاءَ رَكَّبَكَ)، وصِلَتُها تُكسِبُ التَّركيبَ قوَّةً في الدَّلالَةِ، وتَفخيمًا لِشَأنِ تَصريفِ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ في خَلقِ البَشَرِ وتَركيبِ أعضائِهِم وصوَرِهِم، ويَجوزُ أنْ "يُقال: في ﴿مَّا﴾ مَعْنَى الشَّرْطِ والجَزاءِ، والمَعْنَى: (أيِّ صورَةٍ ما شاءَ أنْ يُرَكِّبَكَ فيها رَكَّبَكَ)، ويَكونُ ﴿شَآءَ﴾ بمَعْنَى (يَشاءُ)"[4].

بَلاغَةُ استِعْمالِ ﴿شَآءَ﴾:

تَصريفُ أشْكالِ البَشَرِ خاضِعٌ لِلمَشيئَةِ الإلَهيَّة

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بفعلِ المَشيئَةِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾؛ لأنَّهُ دالٌّ على إسنادِ تَركيبِ الإنسانِ في صورَتِهِ إلَى مَشيئَةِ اللهِ المُطلَقَةِ، دونَ تَقييدٍ بعِلَّةٍ أو داعٍ، فكانَ في ذِكرِ ﴿شَآءَ﴾ تَعظيمٌ لِقُدرَةِ اللهِ التّامَّةِ على تَصريفِ أشكالِ البَشَرِ وهَيكَلَتِهِم، وتَذكيرٌ لِلبَشَرِ بأنَّ صورَتَهُم الَّتي هُمْ عَلَيها لَيسَت حَتمًا طَبيعيًّا، بَل هيَ مُرتَبِطَةٌ بمَشيئَةٍ حُرَّةٍ مُطلَقَةٍ لا يُدرَكُ كُنهُها.

والتَّعبيرُ بالمَشيئَةِ في سياقِ التَّوبيخِ للإنسانِ الغافلِ يُؤكِّدُ أنَّ

(1) السّامرائي، معاني النحو: 1/ 120.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 309.
(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 177.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 555.

الغُرورَ بكَرَمِ الرَّبِّ غَفْلَةٌ عَن أنَّ الكَرَمَ مَقْرونٌ بالقُدْرَةِ، الَّتي لا تُعْجِزُها صوَرُ البَشَرِ، فهوَ يُصَوِّرُهُم كَيْفَ شاءَ، ويُرَكِّبُهُم على أيِّ وجْهٍ أرادَ، فكانَ ذِكْرُ ﴿شَآءَ﴾ مَظهَرًا لِتَهْويلِ سُلْطانِ المَشيئَةِ الإلَهيَّةِ وتَفْخيمِها، حَتّى يَتَنَبَّهَ السّامِعُ إلَى أنَّهُ لا مَفَرَّ لَهُ مِن أمرِ اللهِ وحُكْمِهِ.

بَلاغَةُ استِعْمالِ فِعْلِ التَّركيب:

إنَّ اختيارَ فِعْلِ التَّرْكيبِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ مَبنيٌّ على تَصويرٍ بَديعٍ لِكَمالِ القُدرَةِ الإلَهيَّةِ؛ فإنَّ التَّركيبَ يُفيدُ ضِمنًا جَمعَ أجزاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ على نَحوٍ مُتَّسِقٍ مُنسَجِمٍ، وهَذا أدلُّ على بالِغِ الإتقانِ، فالمُرادُ بَيانُ أنَّ جِسمَ الإنسانِ لَم يوجَد مَحضَ كَونٍ، بَل هوَ مُرَكَّبٌ مِن أعضاءٍ وأجهزَةٍ وقوًى مُتَناسِبَةٍ، لَيسَ فيها تَفاوُتٌ ولا تَناقُضٌ.

إبْـرازُ الإعْـجـازِ الإلَـهـيِّ في خَلْقِ الإنسان

ويَصْدُقُ هَذا التَّعْبيرُ في إطلاقِهِ على الجيناتِ، الَّتي تَكونُ مَسْؤولَةً عَنِ الصِّفاتِ الوِراثيَّةِ المُنْتَقِلَةِ مِن آدَمَ عَبْرَ سِلْسِلَةِ الآباءِ والأجْدادِ إلَى أنْ يَصِلَ إلَيْهِ، فقالَ تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، أي: (سَلَكَكَ)[1]، وهَذا المَعْنَى أدَقُّ ما يُمكِنُ أنْ توصَفَ بهِ الوِراثَةُ، فيَكونُ قَدْ سَلَكَهُ في جيناتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِن آدَمَ إلَى أبيهِ وأُمِّهِ.

وَفي استِعمالِ هَذا الفِعلِ إيماءٌ إلَى أنَّ مَظهَرَ الإعجازِ في الإنسانِ لَيسَ في جَميلِ صورَتِهِ ومُجمَلِها فحَسْب، بَل في تَركيبِ دَقائِقِ حواسِّهِ ووَضعِ كُلِّ جُزءٍ في المَوضِعِ الَّذي يُلائِمُهُ، ممّا ينعَكِسُ على الصّورَةِ، الَّتي يُطبَعُ عَلَيها مِنَ الأخلاقِ والطِّباعِ، فهوَ تَركيبٌ يَتَجَلَّى فيهِ اختيارُ الحِكمَةِ وتَصريفُ المَشيئَةِ.

دَلالَةُ صيغَةِ التَّكْثير:

جاء فِعلُ التَّرْكيبِ في قَولِ اللهِ تَعالَى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ

فَـتَـبـارَكَ اللـه أحسَنُ الخالِقين

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 270.

﴿رَكَّبَكَ﴾، على صيغةِ التكثيرِ؛ للإشارةِ إلى كَثرةِ الأجزاءِ الدّاخِلَةِ في الخَلْقِ الإنسانيِّ، وكثرةِ الرَّوابِطِ الدقيقةِ بينها، وأنَّ هذا التركيبَ مُتَعَدِّدُ الأبعادِ، مادّيٌّ ونَفسيٌّ وعَقليٌّ وروحيٌّ؛ فكلُّه يدلُّ على أنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَ، فسَوَّى، وعَدَّلَ فرَكَّب، وصوَّرَ فأتقنَ، وليس للإنسانِ من ذلكَ شيءٌ سِوَى أن يَخضَعَ، ويَشكُر.

بَلاغَةُ تأخيرِ ﴿رَكَّبَكَ﴾:

بَيانُ مَراحِلِ خَلقِ الإنسانِ ودَلالَتُها على الخالِقِ المُبدِعِ العَظيم

أُخِّرَ الفعلُ ﴿رَكَّبَكَ﴾ عن مُتعَلِّقاتِه: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ﴾؛ ليُشيرَ إلى أنَّ التركيبَ لم يَكُنْ عَبَثًا، بل هو بمشيئةٍ إلهيّةٍ مُطلَقَةٍ، وتقديرٍ محكمٍ، واختيارٍ لحكمةٍ، أي: (لم تُركَّبْ صورتُك على حالِها جُزافًا، بل شاءَ اللهُ أن تكونَ كَما أراد سبحانه، لا كما يريدُ غيرُه)، وجاء التركيبُ في هذا الموضعِ مُتأخِّرًا عن أفعالِ الخَلقِ والتَّسْويَةِ والتَّعْديل؛ ليَدُلَّ على أنّهُ مرحلةٌ تاليةٌ، فهو أخصُّ منها؛ إذْ إنَّه يعني جمعَ الأعضاءِ والأجزاءِ المُختَلِفَةِ وتَرتيبَها؛ لِتُؤَدّيَ وظيفَتَها بتَكامُلٍ، ولهذا قُدِّمَ ذكرُ التسويةِ والتعديلِ قبلَه، فالفعلُ ﴿رَكَّبَكَ﴾ يُفصِّلُ في نعمَةِ الخلقِ، ويُبرِزُ دقّةَ الصنعةِ، ويُنبِّهُ الإنسانَ إلى أنَّه مبنيٌّ بناءً محكمًا، وكلُّ ما فيه من حواسٍّ ومَلَكاتٍ وأعضاءٍ ليس إلّا أجزاءً رُكِّبَت بحكمةٍ توجِبُ الاعترافَ بالمنعِمِ وشكرَه، لا الغرورَ به ونسيانَه.

لَفٌّ ونَشرٌ لِنِعَمِ اللهِ على الإنسانِ المَغرور

وباعتبارٍ آخر، فإنّ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ لفًّا؛ إذ جَمَعَ أُصولَ النِّعْمَةِ الَّتي أوْلَى اللهُ بها الإنسانَ، ففي الخَلْقِ إيجادٌ على مِقْدارٍ مَقْصودٍ، وفي التَّسْويَةِ إحْكامٌ واسْتِواءٌ وسَلامَةُ قوًى ومَنافِع، وفي التَّعْديلِ تَناسُبٌ بَديعٌ بَيْنَ الأعْضاءِ الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ، يَقي مِنَ الاختِلالِ والفَساد، ثُمَّ جاءَ قولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ بمَنْزِلَةِ النَّشْرِ الجامِعِ لِهَذِهِ النِّعَمِ الثَّلاث؛ إذْ هوَ تَفْصيلٌ لِما أُجْمِلَ مِنَ الخَلْقِ والتَّسْويَةِ والتَّعْديل، وإظْهارٌ لِنَتيجَتِها

في الصّورَةِ التّامَّةِ الَّتي شاءَها اللّه لِلإنسانِ، فكانَ في نَظْمِ الآيَتَينِ لَفٌّ أُدْرِجَت فيهِ النِّعَمُ على سَبيلِ التَّعْدادِ، ونَشْرٌ أُبْرِزَ فيهِ تَمامُها في الهَيْئَةِ البَشَريَّةِ، وفي ذلِكَ كُلِّهِ تَذْكيرٌ بعَظيمِ المِنَّةِ، وتَعْريضٌ بالتَّوْبيخِ على كُفْرانِها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغُرورُ والخِداع:

الغُرورُ هوَ النَّظَرُ إلَى الباطِلِ في مَظانِّ الحَقِّ، وهو الانخداعُ بما يوهِمُ النَّفعَ، وسِمَتُهُ المُمَيِّزَةُ أنَّهُ شرٌّ فيهِ رُكونٌ إلى الزُّخرُفِ الظّاهريّ، فهوَ رُكونُ النَّفْسِ إلَى ما تَتَوَهّمُهُ خَيْرًا، وتَرْكُ الحَذَرِ، دونَ أنْ يكونَ بالضَّرورَةِ ثَمَّةَ فاعِلٌ مُخادِعٌ، ويُستعملُ الغُرورُ في مَواطِنِ الدُّنْيا، والشَّهَواتِ، والمَظاهِرِ الزّائِفَةِ، "والغُرورُ: الإطْماعُ بما يَتَوَهَّمُهُ المَغْرورُ نَفْعًا، وهوَ ضَرٌّ، وفِعْلُهُ قَدْ يُسْنَدُ إلَى اسْمِ ذاتِ المُطْمِعِ حَقيقَةً، مِثْلَ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لُقْمانَ: 33]، أوْ مَجازًا نَحْوَ: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثِيَةُ: 35]، فإنَّ الحَياةَ زَمانُ الغُرورِ، وقَدْ يُسْنَدُ إلَى اسْمِ مَعْنًى مِنَ المَعاني حَقيقَةً، نَحْوَ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آلُ عِمرانَ: 196]، وقَوْلِ امرِئِ القَيْسِ:

أغَرَّك مِنّي أنَّ حُبَّك قاتِلي

أوْ مَجازًا نَحْوَ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنْعامُ: 112]"[2].

أمّا الخِداعُ؛ فهوَ إظْهارُ خِلافِ الباطِنِ، ويَكونُ الوُقوعُ في الباطِلِ بسببِ خِداعِ غَيْرِهِ، فسِمَتُهُ الَّتي تُمَيِّزُهُ أنَّ فيهِ تأثيرًا خارجيًّا مقصودًا، فالانخِداعُ هو وُقوعُ النّفسِ في الخَديعةِ بفعلِ غيرِها، فهوَ مَبْنيٌّ على قصدِ الخِداعِ من طَرَفٍ خارجيٍّ، وفيهِ سلبيّةٌ وضعفٌ، كأنَّ الإنسانَ ضَحيَّةُ مَكرٍ مَحْضٍ، فاستِعْمالُ القرآنِ لِفِعْلِ (غَرَّ) دونَ (خَدَعَ) في قَوْلِ اللّه تَعالَى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ يَتَنَزَّلُ على مَساقٍ يَسْتَدْرِجُ القارِئَ إلَى لَوْمِ النَّفْسِ وتَعْييرِها، لا إلَى اتّهامِ غيرِها؛ لأنَّ الغرورَ يكونُ مِن جِهَةِ النَّفْسِ ورُكونِها إلَى ما يوهِمُ البَقاءَ والسَّعَةَ، دونَ تَدَبُّرٍ لِصِفاتِ اللّه وحَقِّهِ في الطّاعَةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 175.

(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 30/ 174.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"